

رد على مقال :

الرحلات العربية

للأستاذ محمد محمود رضوان

قرأت المقال المتع للطريف الذي كتبه الأستاذ للشاعر محمد عبد الفتى حسن بالمدد ٤١٠ من الرسالة وأنى فيه على تاريخ الرحلات العربية . ولس الأستاذ يفسح لنا صدره ففأخذ عليه بمض مأخذ لا تنض من مقاله للقيم

حاول الأستاذ أن يستقصى في مقاله جميع أنواع الرحلات التي نمرها للعرب فوق كثير حيث ذكر الرحلات الاضطرارية كرحلة للفحطانيين ، والتجارية كرحلة الشتاء والصيف لغريش ، والدينية كهجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، والسياسية كرحلات المسلمين إلى المدن المفتوحة ، ورحلات الاستجداء كرحلة جرير وأبى نواس ، وأخيراً (الرحلات لقائها ولم تبدأ إلا في القرن الرابع الهجرى) كرحلة السعوى والبيروني والقدسى وابن جبير والمغربى وياقوت الخ

وعجبي للأستاذ محمد عبد الفتى أن ينسى ضرباً من الرحلات هو في نظري أهم ضرورها ، وأجدرها بالدراسة لأنه أجملها أثراً وأجلها خطراً في العلم والأدب ، وأعنى به (الرحلة في طلب العلم) وأعجب من هذا أن ينسى الأستاذ الكاتب نفسه وهو قد رحل في طلب العلم . وليته قرأ ابن خلدون يقول : (إن الرحلة في طلب العلم وبقاء الشيخة مزيد كمال في التعلم)

ولقد عرف العرب لرحلات العلم قيمتها فكانوا ينتقلون في مشارق الأرض ومغاربها للقاء للشيوخ ، ويرحلون إلى البادية لتتصرى مقاولهم بالفصاحة ، ويتحملون في سبيل العلم من بعد الشقة وقلة الزاد ووحشة الطريق ورهق السفر ما إله به علم

ذكر ابن خلكان أن الخطيب أبا زكريا التبرزي شارح ديوان الحماسة ، والقصائد المشر (٤٢١ - ٥٠٢) وقت له نسخة من كتاب التهذيب للأزهري في عدة مجلدات يعوز بعض مسائلها شيء من التحرير ، فسأل عنم يقوم بذلك فدلوه على أبى العلاء ... فاذا يصنع الرجل والشقة بميدة وهو فقير لا يملك أجرة دابة تحمله ؟ لقد وضع الكتاب في حفيضة وحملها

على ظهره وسافر من تبريز إلى للمرة مشياً على قدميه حتى بلغها وقد قطع نحو سبعمائة ميل ثم أخرج الكتاب فوجد العرق قد نفذ إليه فأفسد منه ما أفسد

والأندلس العربية ، لقد كانت كعبة للقاصدين من أهل المشرق كما كان للمشرق نجمة الرائدين من أهلها طالبين للعلم ، والعلامة المقرئ صاحب كتاب (نفع الطيب) يسهب في كتابه إسهاباً ، ويطنب إطناباً ، حين يتعرض لذكر القئين رحلوا من الأندلس إلى المشرق يطلبون العلم وينافسون فيه المشاركة وكتب التراجم كوفيات الأعيان ومعجم الأدباء وطبقات الأطباء وتاريخ الحكماء تؤرخ لألوف من العرب رحلوا يطلبون للعلم (ولو في الصين) ، لا يوقهم الإملاق عن شهود محافلهم ، ولا تحلهم المشاق عن ورود مناهله

ولقد كتبت فصلاً مسهباً عن (رحلات العرب في طلب العلم) من فصول كتاب أشتغلُ جداً بوضعه عن (المسلمون والتربية) عسى أن يكون للفراغ منه تريباً

والأستاذ شرف الدين خطاب المفتش بوزارة المعارف فصل موجز في هذا الموضوع في كتابه (التربية في العصور الوسطى) الذي يدرس في دار العلوم ، فراجعه إن شئت

نعود لتاحية أخرى نعتقد أن الأستاذ عبد الفتى تجنى فيها على شعراء العربية ، وذلك حيث قال عنهم : « ولكن واحداً منهم لم يفكر في تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة » ، وحيث قال : « وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بمض الثروة إلى الأوب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار ، فهي عقيم كل العقم من هذه للتاحية »

فلقد عرفنا لكثير من شعراء العربية الرحالين شعراً رائماً يصفون فيه رحلاتهم ليس هذا موضع الإفاضة فيه ، ولكنى أمثل بالبحرئى وقصيدته في وصف إيران كسرى التي ضمنها وصف رحلته ومشاهداته ، وأمثلة بأبى الطيب اللثبي الذي تغلب ما بين دمشق وحلب ولبنان وقارس ومصر وشهد غزوات سيف الدولة فضمن شعره الكثير مما شاهده ، فوصف بحيرة طبرية وشعب بوان وحصن وفتاح لبنان ، ووصف نساء الروم في وقعة نهر (أرستاس) ، وليس في إغفاله وصف آثار مصر ونيها دليل على قصوره أو تقصيره فإن لذلك أسباباً لا يتعرض

أو (كان له نصيب) ، والمساهمة هي المقاربة من (القرعة) كما في قوله تعالى في قصة يونس (فصام فكان من المدحضين)^(١) وكان يصيب لو قال : (أسهم) أو (مهم) وقد نبه على هذا الخطأ أستاذنا الجليل العماد صبرى بك^(٢) . ولا حجة للدكتور زكي مبارك في رده لأنه يستشهد بكلام المتأخرين ، ويرضى بأن يخطئ مع الشريف الرضى^(٣) وهو راسياً يقول : (ويعد كتابه الثاني أوفى مراجع عن بلاد الهند ، وأملاً كتب الأَسفار تعريفاً بها) والشذوذ كل الشذوذ في (أملاً) ، لأن أفضل التفضيل - كفضل التمجيد - لا يصاغ من الخماسي (امتلاً) على وزن أفضل . ولا يُقال إنه مصوغ من ملاً ، لأنه كان عليه حينئذ أن يقول : «ويعد المؤلف أملاً المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأَسفار» لأن يستند الملء للكتاب

نعم ، إن الأشعري في شرحه على الألفية وابن هشام في أوضح المسالك ذكرنا من الشذوذ قولهم : «ما أملاً للقرية» مصوغاً من امتلاً ؛ وهذا وهمٌ منهما لأنه لا شذوذ حينئذ في العبارة ، إذ هو مصوغ من ملاً ... والمعنى جيد

وقد اعتذر لها الصبان بأن للشذوذ يكون حين يقال : «ما أملاً للقرية» ، كعبارة الأستاذ عبد الغني فهل يقوم هذا اعتذاراً له ؟

وهو خامساً يقول : «وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب ، إلا أنها لم تكن منتجة ... الخ»

وأنا لا أعلق على هذه العبارة إلا بأن أحمدى الأستاذ بأن يعربها ويبين لنا جواب إذا ويخرج هذا الاستثناء وهو إلى التحية (حدايق التبة)

محمد محمود رضوانه
المدرس بالمدرسة التوفيقية

لها في هذه المُجَلَّة ، بل لقد كان لرحلته إلى مصر آثار كثيرة في شعره ... أقلها أنه بها المصريين وابن هانيء الذي قال عنه الأستاذ (يخرج من الأندلس إلى شمال أفريقية فيمدح الخليفة المزمور ورحل معه إلى مصر ويصف هذه الرحلة في بعض شعره) لقد ظلله ونجى عليه ، فالرجل لم يرحل مع المزمور إلى مصر ولكنه رحل من الأندلس إلى عبدة المغرب فلقى جوهرها للقائد ، ثم علم به المزمور وقربه وأجرى عليه العطايا ؛ ثم رحل المزمور إلى مصر فشيحه ابن هانيء ورجع إلى المغرب لأخذ عياله ، ثم مات قبل أن يلحق بالمزمور . ولما بلغه خبر موته أسف وقال : «كنا نريد أن نتأخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك»

ومع هذا فقد كان لرحلة ابن هانيء إلى المغرب أثرها في شعره ، وقد وصف أسطول المزمور وصفاً رائعاً بقصيدة المشهورة :
أما والجوارى للنشآت التي سرت

لقد ظاهرتها عدةٌ وعديدٌ

وبعد ففي مقال الأستاذ محمد عبد الغني بعض هبات في التعبير واللمعة نرى لزماً علينا أن نشير إليها ، ولا سيما أنه من المولى بن بقمب أمثالها

فهو أولاً ، يقول عن الرحالين من قريش إلى اليمن والشام : (وستسميهم رحالين تجاوزاً) ، مع أن الله تعالى يقول : (رحلة الشتاء والصيف) فهل صحاح القرآن رحالين تجاوزاً ؟ وهو ثانياً يروي بيت الأعمى هكذا :

وشاهدنا أُلجُلَّ واليساميسن والسيمات بأقصابها
وأظن الرواية الصحيحة للبيت (بقصابها) لا (بأقصابها) ، وقد جاء في الأساس : «ونفخ في القصاية : في الزمار ، ورأيت القصائب ينفخون في القصائب : أي الزمارين ينفخون في الزماير ، جمع قاصب الخ» . أما الأقصاب فهي الأمام

وقد روى البيت كما ذكرت للمالم التونسي الجليل الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن طاشور شيخ الإسلام المالكي في تونس ، في بحثه النفيس (الترداد في اللغة العربية) المنشور بالجزء الرابع من مجلة المجمع القومي

وهو ثانياً ، ... استعمل في مقاله (سام) بمعنى (شارك)

(١) راجع تفسير البيضاوي وغيره القرآن لسبستانى ص ٩٨

(٢) ص ٢٢٢ من العدد الرابع من مجلة المجمع

(٣) قال الأستاذ العماد صبرى : «وهناك معنى آخر لتسام ؛ في الأساس : «وتساموا الفئى» : تقاسموه . وجاء الدكتور مبارك في العدد ٣٧٨ من الرسالة يقول : «ثم عجبت كل العجب من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزخسرى نس عليها في الأساس فقال : «وتساموا الفئى» : تقاسموه . اه . قلت : انظروا هو سام بمعنى اشترك»